﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ [طه: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الأسبابِ بعد ذكر الاختيار

بعد أن بيّن السّحرة ما هم عليه من الإيمان؛ وتحدّيهم لفرعون بقولهم: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ وردّوا على تهديده قائلين ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾؛ ناسب أن يُذكر هنا سبب هذا الاختيار المصيري الذي اختاروه؛ فقالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾: جذر الكلمة هو (خطأ)؛ والخَطأ ضد الصَّواب[1]، ويُقال: أخطأ في المسألة وفي الرّأي[2]، والخَطيئَةُ والسّيّئة يتقاربان، لكن الخطيئة أكثر ما تُقال فيما لا يكون مقصودًا إليه في نفسه، بل يكون القصد سببًا لتولّد ذلك الفعل منه، والجمع الخطيئات والخطايا، والخاطِئُ؛ هو القاصد للذّنب[3]، والمقصود في الآية: ما صدر عن السَّحرة قبل إيمانهم.

2) ﴿أَكۡرَهۡتَنَا﴾: جذر الكلمة هو (كره)؛ قيل: الكَرْهُ والكُرْهُ واحد، وقيل: الكَرْهُ: المشقّةُ التي تنال الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحمل عليه بإِكْراهٍ، والإِكْراهُ يُقال في حمل الإنسان على ما يكرهه[4]، والمعنى في الآية: أجْبَرْتنا.

(1) ابن فارس، مجمل اللغة: (خطو)، والسّبتيّ، مشارق الأنوار: (خطأ).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خطأ).
(3) الأصفهانيّ، المفردات: (خطأ).
(4) ابن سيدَهْ، المُحكم، والراغب، المفردات: (كره).

3) ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾: جذر الكلمة هو (بقي)؛ وبقي الشيء يبقى بقاءً، والبَقْوي والبُقْيا بمعنًى، وفلان يَبْقي الشَّيءَ، إذا رقَبَهُ ورَصَدَه، والبَقاء: ثباتُ الشَّيء على حالِه الأولى، وهو يُضادّ الفَناء[1]، والمقصود في الآيةِ: أنَّ ما عند الله تعالى أنفع وأدوم مما سواه من الباطل.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا نزل الإيمانُ بساحات القلوبِ هُزِم الشَّيطان في أعالي العقول

تُبيِّن الآية سببَ إقدامِ السّحرة على تركِ السِّحر، والانقلاب على فرعون هذا الانقلاب المصيري، وهو الإيمان بالله تعالى، ورجاء ما عنده وأن يغفر لهم خطاياهم، وخصّوا السّحر بالذكر مع دخوله في خطاياهم، للإشعار بشدَّة نفورهم منه، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هداهم الله إلى الإيمان، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ ردٌّ على قول فرعون لهم: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾، والمعنى: أنّ الله تعالى هو خير ثوابًا منك، وأبقى جزاء وعطاء، فإنّ ثوابه سبحانه لا نقص معه، وعطاءه أبقى من كل عطاء[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ بين الجمل:

بيانُ العللِ يُزيلُ العجب ويُبدِّد التُّهم

فُصل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ لأنَّه استئناف بيانيّ جرى مجرى التعليل للجملة السَّابقة، فقد بيّنوا هنا سببَ استهانتهم بالحياة الدّنيا، والتسوية بين ما يمكن أن يفعله فرعون أو أن يمتنع عنه، وأن ذلك التّهديد والوعيد لن يثنيهم عن اختيارهم، وما ذاك إلا بفعل الإيمان، وعلّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾، فالجملة الثَّانية جوابٌ عن سؤالٍ افتراضيٍّ أثارته الجملة الأولى.

(1) ابن فارس، مجمل اللغة، الراغب، المفردات: (بقي).
(2) طنطاوي، الوسيط: 9/ 130.

فائدةُ التّوكيد وتنوُّعُه:

جاء تأكيد الخطابُ بأداةِ (إنَّ) والجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾؛ لإفادةِ الاستقرار والثّبات، وتبيين استقرار الإيمان في قلوبِهم، ورسوخه في دواخلهم، وفائدة ذلك أنّ المخاطب قد أنكر عليهم إيمانهم، وظنَّ أنَّه سيثنيهم بالتّهديد والوعيد، فجاء الأسلوب مُؤكَّدًا بأداة (إنَّ) والجملة الاسميَّة ليُعلم أنه لا عودة عن الإيمان، وأنّ ما رأوه مِن حقّ المعجزة والنّبوّة والرّسالة قد منحهم مِن قوّة اليقين ما لا رادَّ بعده إلى عصيان وكفر مهما بلغت أساليب فرعون إكراهًا وتهديدًا.

إذا استقرَّ الإيمان فلا محيدَ عنه ولا رجعةَ إلى نقيضه

نكتةُ التّعبير بضمير الجمع:

دلَّ التَّعبير بضمير الجمعِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا﴾؛ على وحدة مقال السَّحرةِ التائبين، وبيان الثّقة العامّة بينهم إيمانًا وتصديقًا بالرّسالة، وما جرى من أفعال الله على يد موسى عليه السلام، وأنّهم قد وصلوا جميعًا دون استثناءٍ إلى مرحلة يقينيّة من الإيمان والمعرفة بعظيم شأن الله تعالى، ودلَّ على ما في ذلك الاجتماع على كلمة الإيمان من قبل السّحرة من أثر على المجتمع كلّه؛ من زعزعة الولاء لفرعون، والتَّفكّر في معجزة موسى، وما يؤدّيه ذلك من الدخول في دين الله، ونبذ ما يدّعيه فرعون وملؤه.

توحُّدُ السّحرةِ في صفّ التّوحيدِ كسرٌ صنمَ الشِّركِ

دلالة التَّعبير بالماضي: ﴿ءَامَنَّا﴾:

يدلّ قولُ السَّحرةِ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ بصيغة الماضي على رسوخ الإيمان في القلوبِ، وأنّه قد لامس شغافها، وارتكز فيها، فأصبح الموجِّه والمرشد، فلا سبيل في الرَّجعةِ عنه.

معنى الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّنَا﴾ لتعدية الفعل آمنَّا، مع وجودِ معنى

لا إيمان مطلقًا إلا برب العالمين

السَّببيَّة؛ فإنَّ اختيارَ الباء للدَّلالة على أنَّ الإيمان باللّه تعالى كان بسببٍ بيِّنٍ، لا أنَّه جاء اعتباطًا.

بلاغةُ اختيارِ عنوانِ الرّبوبيّة:

الرُّبوبيَّة أصلُ الخلقِ وسببُ العبادةِ والباعث على الطَّاعة

اختير عنوانُ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّنَا﴾ لبيان وجه السَّببيَّة، فإنَّ اللّه تعالى الذي فطَرهُم من عدمٍ هو المستحِقُّ للإيمانِ والعبادةِ والطَّاعةِ الحقَّة، وما دونه فباطلٌ لا يستحق الطَّاعة فضلًا عن العبادةِ إلَّا بأمر اللّه تعالى، وهو إظهارٌ لعنوانِ الرُّبوبيَّة في مقامِ إنكارِها من المأفون؛ لإظهار الثَّباتِ والعزيمة الصَّادقة والقناعة الحقَّة بربِّ العالمين الذي تجاهله فرعون حين قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: 23].

معنى اللّام ودلالتها:

أوَّل الغايات التَّجاوز عن الخطيئات

دلّت اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ على التّعليل، فاللّه تعالى يغفر الذنوب والخطايا، وعجيب شأن هؤلاء السّحرة كيف ترسّخ في نفوسهم كمالُ الهداية في لحظات الإيمان هذه!؟ وكيف بُنيت المغفرة والتّجاوز عندهم عمَّا سبق من الآثام والكبائر بمجرّد الإيمان اليقينيّ الذي حصل منهم!؟ وفي ذلك مَحَطُّ اقتداء بهم قائم إلى يوم القيامة.

فائدةُ الإضافة إلى ضمير الجمع:

الاعتراف بالذنوبِ إقرارٌ نبيلٌ واسترحامٌ حكيم

أُضيفت الخطايا في قوله تعالى: ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾ إلى ضمير الجمعِ، ولم يُقل: (الخطايا) بالتَّعريف بأل، بل نسبوها إلى أنفسهم، فلم يُبرِّئوا أنفسهم من تلك الخطايا، وذلك إقرار نبيل واسترحامٌ حكيم، مع بيانِ أنَّهم كانوا مُكرهين على فعلها، في قولهم: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

غرضُ استعمال الموصول العموميّ:

دلّ الاسم الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا﴾ التي

تقع على ذوات ما لا يعقل وعلى صفات من يعقل، وسبق ورودها في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، وما في يمينه هو العصا، والغرض الذي سيقت من أجله (ما) هنا هو بيانُ عمومِ ما أَكْرَه فرعونُ السّحرةَ عليه من تعلّم السّحر ومزاولته، فأفاد ذلك بيانَ كثرةِ عملهم به حتّى عمّ أوقاتهم وحياتهم، ولكثرته أصبحوا مُكرهين على قضاء أوقاتهم كلّها في تعلّم السّحر والتّفوّق فيه.

الإكـــراه على السّحر عمَّ كلَّ ما من شأنه أن يخدمَ فرعون في حكمه

نكتة خطاب فرعون بضمير المفرد:

خاطب السَّحرةُ فرعون في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا﴾ بضمير المفرد تحجيمًا لما يراه في نفسه من العظمة والرّبوبيّة والعلوّ؛ وهو الذي جرى على لسانه طغيانُ الكبر وغطرسة الخيلاء حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النّازعات: 24]، فجاء الخطاب بضمير المفرد لكسر هذه العُنْجُهيَّةِ التي تلبَّسَ بها فرعون، وهَيمنَتْ على عقول النَّاس وقلوبهم.

التـهـويـن من شأن فرعون في نفوس المؤمنين

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ:

استُعمل حرفُ الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾؛ ليدلّ على الهيمنة والسّطوة، والإشارة هنا إلى مسألتين: **الأولى:** إكراه فرعون للسَّحرة أن يمارسوا السّحر بكلّ ما أوتوا من القوة، **والثّانية:** ما وصلوا إليه من براعة السّحر وعلمه، الذي أصبح في نهاية الأمر مدعاة لهم إلى الإيمان؛ لأنهم أعظم من برع فيه، فلمَّا رأوا ما جاء به موسى علموا يقينًا أنّه ليس من السّحر في شيء.

نـهـايـةُ الإكـراه مُـتـارَكَـةُ العـملِ والكفرُ بصاحبه

براعةُ استعمال مفردة الإكراه:

اختار النَّظم مفردة: ﴿أَكْرَهْتَنَا﴾ ليدلَّ على حالِ السَّحرةِ في عدم رغبتهم بالقيام بالسّحر، ولعلّ ذلك بسبب ما فيه من أذيّة لهم، فالسّحر عمل مخالف للفطرة البشريّة، على أن الإكراه عذرٌ للتّبرُّؤِ من عواقب الأفعال المُرديَة؛ فيُسأل عن سرِّ إيرادِ هذه المفردة،

الإكـــراهُ حكمُ الأصـــلِ ومـع الاعـتـيـادِ طلبَ السَّحرة الارتيادَ

أي: لماذا قالوا أكرهتنا وهم قاموا به متطلعين إلى المكانةِ الأعلى، طالبين الأجر، فإن كان إكراهًا فلا ذنب عليهم، وإن كان بإرادتهم كما يوحي السّياق فلماذا سُمّي إكراهًا؟!

والجواب عن ذلك أنَّهم أُكرهوا في بدايةِ الأمر على السِّحر وتعلمه واستعماله في الباطل المؤيِّد لحكم فرعون، فحُكْمُه باطلٌ قائمٌ على شعوذةٍ وتمويهٍ، والذي كان منهم مع مرور الأيَّام الاعتياد على مثل هذا الصَّنيعِ؛ فلمَّا طلبوا العزَّة بالسِّحر كان باعتبارِ الاعتيادِ مع لِحاظِ أنَّهم مُكْرَهون في الأصل، وعليه فاستعمال هذه المفردة دالٌّ على أنَّ الإكراه كان هو الأصل، وما طلبوه بعد ذلك بحكم الاعتيادِ على المكرهات.

بلاغة التّذييل:

أعتى عبارات الوعيد تردُّها أرسخ عبارات العبيد

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ في موضع الحال، أو معترض في آخر الكلام للتّذييل، أي: إنّ الله خير لنا بأن نؤثره منك، وإرضاء الله خير من إرضائك، ونعيم الله خير وأبقى منك، أي: جزاؤه في الخير والشرّ أبقى من جزائك فلا يهولنا قولك: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰٓ﴾، فذلك مقابلة لوعيده مقابلة تامة[1]، وفي العبارة تذييلٌ قصدوا به الردَّ على قول فرعون لهم: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰٓ﴾[2]، فكانت هذه العبارة خلاصة ما يمكن ذكره أمام فرعون أعتى طغاة العصر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَطايا والسيئات والآثام والذنوب:

الخطايا أعمُّ الألفاظِ والإثم ما كان عن عمدٍ

الخطيئة قد تكون من غير تعمد ولا يكون الإثم إلا تعمدًا، ثم كثر ذلك حتى سُمّيت الذنوب كلُّها خطايا، كما سميت إسرافًا، وأصل الإسراف مجاوزة الحدِّ في الشّيء[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 267.
(2) طنطاوي، الوسيط: 9/ 130.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 222.

وأما الذّنب: فيُطلق على ما يُقصد بالذّات، وكذا السّيئة والخطيئة تغلب على ما يقصد بالعَرَض؛ لأنّها من الخطأ، وقيل: الخطيئة السيئة الكبيرة، وقيل: الخطيئة ما كان بين الإنسان وبين اللّه تعالى، والسّيئة ما كان بينه وبين العباد[1].

الإكراه والإلزام والإيجاب:

الإكراه: حَملُ الغير على ما يكرهه بالوعيد، أو الإلزام والإجبار على ما يكره الإنسان طبعًا أو شرعًا، فيُقدِم على عدم الرضا، ليرفع ما هو أضر[2].

الإكـــراه إلـــزام باطل، والإلـزام فـــي الـحـــقّ والـــبـــاطـــل، والإجبار على ما يُكره

والإلزام يكون في الحقّ والباطِل، يُقال: ألزمته الحقّ وألزمته الباطِل، والإيجاب لا يسْتَعْمل إلَّا فيما هوَ حقّ؛ فإن استُعمل في غَيره فهوَ مجاز، والمراد بِه الإلزام.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 221.
(2) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 33.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»